القصص

على كف القدر

للأديب السيد محمد زيادة

الحياة لغز معقد أعجب ما فيه أن يشقى من لا يستحق الشقاء وأن يهنأ من لا يستحق الهناء ؛ ولكن رحمة الله قريب . . .

التف الولدان والبنتان حول أمهم فى أول الليل يسألون عن العشاء ، وراحت هى تعللهم وتشاغلهم بما يلذ لهم من الحديث ليغمي على طفولتهم فيناموا . .

ثم ما لبثت صغرى البنتين أن استلقت على حجر أمها نصفها يقظان ونصفها هاجع ، فحدبت عليها الأم ومالت تقبلها وتهز أعطافها برفق لتصرف عنها بقية يقظة وتسرب إليها بقية نعاس .

ثم نامت الفتاة طاوية تشيع على وجنتيها حمرة صفراء فيها معنى الطوى ، وترقد بين أجفانها نظرة موهونة فيها معنى الألم ، وتجول على شفتيها ابتسامة حزينة فيها معنى اليأس ! !

ورأتها أمها نائمة لا يستقر على ملامحها الكرى ، فحدقت فى وجهها وأطالت التحديق . . . فأى حزن أبلغ من حزن أم فقيرة تنظر إلى وجه ابنتها النائمة فترى الجوع والفقر يتصالحان لتذبل فى صلحهما زهرة ناضرة ؟ .

وسقطت من عين الأم على خد الفتاة قطرة من الدمع . . . ثم نهنهت المسكينة دمعها ، ورفعت رأسها إلى أعلى وقالت : يارب !

ونظر الولد الأصغر إلى أمه بعد إذ تنهدت وقال : هاهى ذى قد نامت فلم يبق إلا نحن الثلاثة . . . أما لديك طعام لنا ؟

قال الولد الأكبر : إذا كان لديها طعام فماذا كان يمنعها أن تقدمه ؟ . انتظر يا مجنون حتى يعود أبونا فأنا لا نملك الطعام أو ثمن الطعام إلا بعد عودته .

قال الولد الأصغر لأمه : وهل يحضر معه ما وعدتنى وهو خارج فى الصباح بإحضاره يا أماه ؟ أم يخلف ما وعد كما فعل بالأمس وكما يفعل كل يوم ؟ .

قالت الأم : سيأتيك بكل ما تطلب يا ولدى والله معينه .

قالت البنت الكبرى : إنه تأخر الليلة عن موعده يا أماه .

قال الولد الأكبر : أنا أعرف أنه تأخر ليملأ جيبه بالمال ، وسوف ترون كيف يوسع علينا الليلة فنشبع بطوننا بكل ما نشتهيه .

وما هى إلا هنيهة حتى أقبل الرجل يتحامل على نفسه فيتقدم به شيء ويتأخر به شيء . . . يتقدم به الحنين إلى أولاده وتتأخر به الحسرة عليهم . . . فهو بين الماشى والواقف ، يحمل على كتفه صندوقه وفيه تجارته يجوب بها الطرقات .

ورآه الأولاد مقبلا فجنوا جنون الفرح ، واستيقظت النائمة على أصواتهم ، ونهضوا جميعاً يهللون ويصيحون : جاء أبونا . جاء أبونا . . أما هو فقد لقيهم بوجه كاسف مغبر ، فكان كمن توقع مصيبة فوافته مصيبتان ، وأسلم لهم يديه وجسمه يتعلقون به ويتواثبون حوله ، وأبقى لنفسه رأسه بما حوى من فكر وما حمل من هم .

أما زوجته فقد علقت بصرها به فعرفت ما به ، وبادلته نظرات مستصرخة بنظرات صارخة ثم تنفست وقالت : يارب .

ووضع الرجل صندوقه وجلس إلى جوارها مكبكباً مخذولا ؛ والتأم الاولاد حولها وقال الولد الاصغر : هل نكثت بوعدك يا أبى كعادتك ؟ . قال الرجل : لا يابنى . سأفى إن شاء الله

قال الولد : ومتى يشاء الله ؟ كل يوم تقول هذا ولا تفعل شيئاً ! !

قالت البنت الصغرى : لقد تأخرت يا أبى للآن ولم نأكل ، ألم تدر أننى جائعة ؟ إنى سأخاصمك ولكن بعد العشاء

فضحك الرجل ضحكة باكية ثم قدم لزوجه ما فى جيبه وقال : خذى هذا فهو كل ما رزقته فى مطافى . . .

وما الذى كان فى جيبه ؟ .

قرش ونصف قرش جناها الرجل من سعيه طول يومه ، فهل تكفى لقوت أسرة لا أدم عندها ولا خبز ؟ يا رحمة الله بالمساكين ! يارحمة الله ! أى فقر هذا ؟

أطفال أبرياء يرهقهم الجوع وليس لديهم مما يحمله غير الصياح والتوجع ، وليس حولهم مما يدفعه غير تسلية أمهم ووعودها وأم حرى ممزقة الكبد ، ترى أولادها وهم فتات قلبها نوحاً يتكلم الجوع بألسنتهم . ويتكلم ألم الجوع بعيونهم ، وهى حيرى

تسمع كلامهم بأذنها وتحس آلامهم فى قلبها . ولكنها لا تملك لهم شيئاً فلا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فهى محتوم عليها أن تظل صابرة على ما تسمع وما ترى . وأن تنسى نفسها بأولادها فتحمل كربتهم على كربتها ، وأن تنظر دامعة ما يفلت من بين يدى القدر إلى يدى زوجها من رزقه الحبيس .

ووالد بائس يعلم أن وراءه أربعة أطفال يمزغهم الجوع بين أحضان أمهم البرة فلا يغنيهم حنانها عن الطعام . . . ويعلم أنهم يحيون فى غير الحياة ، وينتظرون عودة الحياة فى عودته ! ! فيندلق فى الطرقات ناحية فناحية يتبع شيئا ممنوعا ، هو رزقه ، ويصل شيئا مقطوعا هو حظه ، ويقطع شيئا موصولا هو فقره . . .

ولكنه لا يبلغ بسعيه وجهاده غير ما يقدر له . . . وماذا يقدر للفقير غير الفقر ؟ ياويلتا ! ! ياويلتا لهم ! !

وجعل الرجل والمرأة يتشاوران ، وراح كل من الأولاد يطلب شيئا بينما لا يكفى القرش ونصف القرش لشراء شيء . . .

قالت البنت الصغرى : أريد أن آكل سمكا فأنا أشتهيه من شهر وكلما طلبته تؤخرونه إلى يوم بعد كل يوم . وقد رأيت بنت الجيران تأكل منه بالأمس ، ولولا أنى خفت أن تضربونى لشحذت منها ؛ وكانت هى تنظر إلى مختالة ونظراتها تقول لى ماتقول . وكنت أنا أنظر إليها حزينة ونظراتى تقول لها ما تقول أيضا

فتبللت أجفان الأم وصرخ قلبها صرخة وقالت : عزيز على يا ابنتى — فاصبرى لعل الله يرحمنا

قال الولد الأصغر : وأنا أريد أن آكل أرزا . . .

قالت الأم : آه ياولدى ! ! غداً أعمل لك الأرز

قال الولد : يا طالما تقولون غداً وما يأتى الغد بشيء . . . أريد أن آكل الآن أرزاً ، وإلا فسأبكى . . .

وجهش الولد إلى أمه المسكينة ، ثم بكى فبكت له وضمته إلى صدرها وعيناها مدرار تميح من قلبها الدموع

وبكت البنت الأخرى فبكى الولد الآخر . . .

أما الرجل . فكان مطرقا واجما لا يطيق أن يرى موقف البكاء فى منظر الفقر بين زوجه وأولاده ؛ وكان تائها فى دنياه يرى بخياله ماضيه الرخى الناعم فيهز رأسه ، ويرى بعينه حاضره الشقى المظلم فيزفر ، ويرى بفكره مستقبله الحالك المقطب فيرتعد

ثم ضاقت به نفسه فخرج على حكمة الرجولة وهوى من ثبات الايمان إلى خور اليأس . . . وبكى . . . وبكى بكاء رجل ، وما أمر بكاء الرجال ! !

ثم رفع المسكين رأسه وقال : يارب ماذنبى وماذنب صغارى ؟ ماذا يطعم هؤلاء الليلة وماذا يطعمون كل ليلة ؟

قالت الزوجة : خفف عنك حملك . . . إن الله لم يخلقنا لينسانا . . . إنه يرانا . . . إنه قادر رحيم . . .

ثم قالت : سأخرج الآن لأشترى بالقرش خبزا وبالنصف قرش جبنا ليأكل هؤلاء . وغداً يفعل الله بنا ما يريد

ورضى الأولاد أن يمسكوا رمقهم بالجبن ، فشيء خير من لاشيء . . . وخرجوا تصحبهم أمهم لتهون عليهم فى الطريق مشقة انتظار الطعام ، ومشوا حولها يتناقشون . . . يقول هذا : أنا الذى أحمل الخبز ، وتقول هذه : لا . . أنا التى أحمله . . . ويقول هذا : أنا الذى أصون الجبن ، وتقول هذه : لا . . . أنا التى أصونه . . . ثم يقول هذا : أنا الذى أجلس إلى جنب أمى وقت الأكل ، وتقول هذه : لا . . . أنا التى أجلس إلى جنبها . . .

حتى إذا كانوا على بعد خطوات من البدال كان التقاش بينهم على أشده ، فعثرت أمهم بأحدهم فكادت تسقط على الأرض وسقطت النقود من يدها . . : فقفزت لترد القضاء ولكن القضاء أسبق ! ! حمل القرش والنصف إلى الطين ثم إلى الخفاء

يالله ! ! يالله ! ! ماهذه الدنيا ؟ إنها لا ترحم ولا تعرف إلا اللين فى القسوة . نكبت هذه الأسرة بالفقر ثم لم يرضها هذا حتى نكبتها بفقر الفقر ! يا أيها الأغنياء . . . كيف يحل لكم عيشكم الرغيد وفى الحياة مثل هذه الأسرة ؟

ومدت المسكينة يدها فى الطين تبحث فلم تجد شيئا . . . وجعلت تبحث فلا تجد . . . ثم وقفت ذاهلة وعيناها تذرفان ماسال من حشاها

ثم جمعت أولادها الباكين وعادت . . . ولكن كيف عادت ؟

عادت محطومة يستغلق على إحساسها كل ما حولها . . . فلا تسمع شيئا مما ترى ، ولا ترى شيئا مما تسمع ؛ وكأنما انفضت من حولها الدنيا فلم يبق إلا هى وأولادها ، وما بينها وبينهم إلا أنين وأنين . . .

وإنهم ليقتحمون ظلمة الطريق بظلمة اليأس إذ أفلت الولد الصغير من بينهم فتأخر . . .

ثم صاح وهو يجرى ليلحقهم : أماه . . . لقد وجدت قرشا !

وأخذت الأم ما فى يده فاذا فى يدها قطعة فضية بعشرين قرشاً . . .

يا أرحم الراحمين . . . ودارت الأم ، ودار أولادها معها ومضوا . . . ومضوا إلى السوق

طنطا

السيد محمد زياده